جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا
المجـــلة العلميـــة

رعاية السياق أهميتُها وأثرُها في التفسير
دراسة تطبيقية على تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان

إعداد

د/ أحمد عبد الحميد محمد أحمد العوني

أستاذ مساعد ــ رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين قنا

(العدد التاسع عشر ٢٠٢٢م)

رعايـة السياق أهميتُها وأثرُها في التفسير

دراسة تطبيقية على تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان

أحمد عبد الحميد محمد أحمد

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربيـة بنـين بقنـا، جامعـة الأزهر، قنا، مصر.

البريد الإلكتروني: AhmedAbelhamed.4119@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تأتي أهمية مراعاة سياق الآيات لفهم القرآن فهمًا صحيحًا، والوقوف على منهج عـالم من علماء التفسير وبيان مدى رعايته لقاعدة مهمة من قواعد التفسير فـي تفسـيره، وعلى هذا فالآخذ بالسياق يدرك هذا الترابط القوي بين أول الآية وآخرها، وبين الآيـة وسابقتها ولاحقتها، وهكذا حتى يخلص إلى نتيجة واحدة وهي أن القرآن كلٌ لا يجـزأ، مؤتلف لا اختلافَ فيه ولا تناقضَ ولا تنافرَ، يفسرُ بعضُه بعضًا، ويفصِّلُ في موضعٍ مـا جاء مجملًا في موضعٍ آخر، ومنهج البحث استقرائي قائم على تتبع كلام أبـي حيَّـان – رحمه الله – في تفسيره عن السياق لتوضيح موقفه منه، وتوصل البحث إلى أن رعايـة السياق من أهم أدوات المفسر لفهم كلام الله – تعالى– وتبيين وجه الصواب فيـه، وأن تعدد أنواع السياقات التي أوجبَ العلماءُ مراعاتها قبل الخوض في بيان معـاني القـرآن الكريم، وأثبت البحث أن أبا حيان – رحمه الله – كان من المفسرين الذين اهتموا بقضية السياق اهتمامًا كبيرًا في تفسيره، ويوصي الباحث بأن تقـوم الأقسـام العلميـة بعمـل دراسات حول طرق العلماء في تفسيرهم لكلام الله، مع تطبيق هـذه الدراسـات علـى تفاسيرهم؛ لبيان مدى مراعاتهم لقواعد التفسير المختلفة في كتبهم.

وعلى هذا فالآخذ بالسياق يدرك هذا الترابط القوي بين أول الآية وآخرها، وبين الآية وسابقتها ولاحقتها، وهكذا حتى يخلص إلى نتيجة واحدة وهى أن القرآن كلٌ لا يجزأ، مؤتلف لا اختلافَ فيه ولا تناقضَ ولا تنافرَ، يفسرُ بعضُه بعضًا، ويفصِّلُ في موضعٍ ما جاء مجملًا في موضعٍ آخر، ومما نراه في واقعنا المعاصر ما يستدل به البعض أحيانًا بآيات من القرآن ويخرجها عن سياقها فيأتي بعكس المعنى، وهذا جهل بقواعد التفسير التي تستوجب تفسيرَ الآية في سياق ما قبلها وما بعدها من آيات وغير ذلك من السياقات، وقد كان من أسباب اختيار الموضوع أننا نرى كثيرًا من أدعياء العلم والفهم يتهجمون على قدسية القرآن الكريم ويفسرون بعض آياته بمنأى عن بعضها الآخر فيخرجون علينا بمفاهيم مغلوطة وحقائق مقطوعة عن بعضها.

الكلمات المفتاحية: السياق، أبو حيان، البحر المحيط، التفسير، الترابط.

Context care its importance and impact on interpretation An applied study on the interpretation of the ocean by Abu Hayyan

Ahmed Abdel Hamid Mohamed Ahmed

Department Interpretation and Sciences of the Qur'an, College: Islamic and Arabic Studies for Boys in Qena, Al-Azhar University, Qena, Egypt.

Email: AhmedAbelhamed.4119@azhar.edu.eg

Research Summary:

The importance of taking into account the context of the verses in order to understand the Qur'an correctly, and to stand on the approach of a scholar of interpretation, and to show the extent to which he takes care of an important rule of interpretation in its interpretation Based on this, the one who takes the context realizes this strong interconnection between the beginning and the end of the verse, and between the verse and its predecessor and its suffix, and so on until he comes to one conclusion, which is that the Qur'an is an undivided whole, reconciled with no difference, no contradiction, no incongruity, some of which are explained by the other, and in one place it is detailed as a whole In another place. The research method is inductive based on following the words of Abu Hayyan - may God have mercy

on him – in his interpretation of the context to clarify his position on it The research concluded that taking care of the context is one of the most important tools of the interpreter to understand the words of God – the Most High – and to show the right side in it The multiplicity of the types of contexts that scholars have obliged to take into account before delving into the statement of the meanings of the Noble Qur'an The research proved that Abu Hayyan – may God have mercy on him – was one of the commentators who paid great attention to the issue of context in its interpretation.

The researcher recommends that the scientific departments conduct studies on the methods of scholars in their interpretation of God's words, with the application of these studies to their interpretations; To show the extent to which they observe the different rules of interpretation in their books Based on this, the one who takes the context realizes this strong interrelationship between the beginning of the verse and its end, and between the verse and its predecessor and its suffix, and so on until he comes to one conclusion, which is that the Qur'an is a whole that is indivisible, reconciled, with no difference, no contradiction, no inconsistency, some of which are explained by each other, and in one place it is detailed as a

whole. Elsewhere Among what we see in our contemporary reality is what some people sometimes infer with verses from the Qur'an and take them out of their context and come with the opposite of the meaning One of the reasons for choosing the topic was that we see many claimants of knowledge and understanding attacking the sanctity of the Noble Qur'an and explaining some of its verses apart from others, so they come up with false concepts and facts that are cut off from each other.

Keywords: Context, Abu Hayyan, Ocean sea, Interpretation, Bonding.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله – تعالى – من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له .

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾(٣) .

أمَّا بعدُ ،،،

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهُدى هُدَىُ محمدٍ – ﷺ– وشرَّ الأُمور مُحْدَثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ(٤)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢

(٢) سورة النساء آية ١

(٣) سورة الأحزاب آية ٧٠ ، ٧١

(٤) جزء من حديث رواه مسلم – واللفظ له – مرفوعاً من طريق جابر بن عبد الله في كتاب: الجمعة ، باب: تخفيف الصلاة والخطبة . صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٤١٨ ط دار الحديث – القاهرة .

مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين.[1]

اللهمَّ فقِّهْنا في الدين، وعَلِّمْنَا التأويل يا ربَّ العالمين.

إن القرآن الكريم منذ نزوله على النبي – ﷺ – إلى الآن وهو محطُّ قلوب وعقول المؤمنين ينهلون من فيضه، ويجتهدون في تلاوته آناء الليل وأطراف النهار .

وقد أمر الله عباده بالتفكر في هذا القرآن والتدبر في معانيه" أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيرًا "[2]

كما أمر بالنظر فيما ما تحمله ألفاظه من معانٍ لا يدرك دقائقَها إلا أهلُ الفهمِ السليمِ " وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلا الْعَالِمُونَ " [3]

ولقد كان الصحابة –ﷺ– جديرين بهذه المنزلة الرفيعة من التدبر في كتاب الله – ﷻ – فرأينا منهم حبرَ القرآن ابن عباس – رضي الله عنهما – وغيره من الصحابة الذين كان لهم باعٌ في تفسير القرآن، ثم تَبِعهم أتباعُهم فأخذوا عنهم علمهم وبلغوه لمن أتى بعدهم إلى يومنا هذا.

وإنَّ من أهم الأمور التي ينبغي على المتدبر في القرآن العظيم أن يشغل قلبه بها نظمَ الآيات وما يترتب على ذلك من إظهار إعجازه وترابطه وائتلاف بعضه مع بعض، فبين آيات القرآن وحدةٌ موضوعيةٌ وتناسبٌ لا يترك مجالاً لتفسير جزءٍ من الآية

(١) جزء من حديث رواه البخاري من طريق معاوية بن أبي سفيان في كتاب: العلم ، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ص ٢٥ حديث رقم ٧١ ط دار الحضارة للنشر والتوزيع طبعة ثالثة ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

(٢) النساء ٨٢

(٣) العنكبوت ٤٣

الكريمة بمنأىً عن سابقها ولاحقها، بل لا مجال لتفسير آية قبل التدبر في بقية آيات السورة أو القرآن عموماً.

وعلى هذا فالآخذ بالسياق يدرك هذا الترابط القوي بين أول الآية وآخرها، وبين الآية وسابقتها ولاحقتها ، وهكذا حتى يخلص إلى نتيجة واحدة وهي أن القرآن كلٌ لا يجزأ، مؤتلف لا اختلافَ فيه ولا تناقضَ ولا تنافرَ، يفسرُ بعضُه بعضاً، ويفصِّلُ في موضعٍ ما جاء مجملاً في موضعٍ آخر .

ومما نراه في واقعنا المعاصر ما يستدل به البعض أحياناً بآيات من القرآن ويخرجها عن سياقها فيأتي بعكس المعنى ، وهذا جهل بقواعد التفسير التي تستوجب تفسيرَ الآية في سياق ما قبلها وما بعدها من آيات وغير ذلك من السياقات، وسيأتي مثاله – بإذن الله – في بيان أنواع السياق .

لذا نجد النبي – ﷺ– يعملنا وجوب مراعاة ترابط القرآن فيفسر آية في سورةٍ بآية في سورة أخرى ، كما حدث في تفسيره للظلم الوارد في قول الله – ﷻ – " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ " (١)

فقد روى البخاري – رحمه الله – بإسناده – عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ – ﷺ– قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآية " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ "شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَقَالُوا أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ ؟

فَقَالَ رَسُولُ – ﷺ– إِنَّهُ لَيْسَ بِذَاكَ أَلا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (٢)

---

(١) الأنعام ٨٢

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب: التفسير ، باب " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " ص ٧٤٧ حديث رقم ٤٦٢٩ ، والآية من سورة لقمان: ١٣

ثم إننا نجد كبار الصحابة – ﷺ– المعروفين بتفسير كتاب الله –ﷻ – يسيرون على نفس النهج فيجعلون لمراعاة السياق منزلةً في تفسير كتاب الله – ﷻ– حتى صار ذلك من مرجحات تفسيرهم للقرآن واعتماده كما سيأتي قريباً بإذن الله .

وقد اعتبر ابن تيمية – رحمه الله – أن من مرجحات تفسير الصحابة – ﷺ– على غيرهم كونهم شاهدوا تنزيل القرآن، فهم أدرى بمعناه أكثر من غيرهم وليس من رأى كمن سمع، فقال ابن تيمية – رحمه الله – "إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاءِ الراشدين، والأئمةِ المهديين "انتهى [(١)].

وهذا ما سيظهر لنا في بعض الأمثلة التي سيأتي ذكرها في هذا البحث .

أسباب اختياري للموضوع وأهميته:

١- خدمة كتاب الله – ﷻ – من خلال بيان أهمية مراعاة قواعد التفسير .

٢- أننا نرى كثيراً من أدعياء العلم والفهم يتهجمون على قدسية القرآن الكريم ويفسرون بعض آياته بمنأى عن بعضها الآخر فيخرجون علينا بمفاهيم مغلوطة وحقائق مقطوعة عن بعضها .

٣- أهمية رعاية السياق في التفسير لما لها من إظهار لانسجام آيات القرآن وسوره .

٤- أن أبا حيَّان – رحمه الله – من أئمة التفسير المجتهدين الذين اعتنوا باللغة وما يتعلق بها في تفسيره مما كان له أثرٌ واضح في موقفه من مراعاة السياق في تفسيره .

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ص ٩٥ ط تحقيق دكتور عدنان زرزور طبعة ثانية ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م

أهداف البحث:

١- بيان أهمية مراعاة السياق لإظهار بلاغة القرآن وترابط آياته وسوره.

٢- الوقوف على منهج عالم من علماء التفسير ومدى رعايته لقاعدة مهمة من قواعد التفسير في تفسيره.

خطة البحث:

قسمتُ بحثي هذا إلى:

١- **مقدمةٍ**: فيها بيان لخطة البحث وأقسامه .

٢- **تمهيدٍ**: ذكرت فيه : التعريف بأبي حيَّان – رحمه الله – ومنهجه في تفسيره.

مبحثين اشتملا على ما يلي :

المبحث الأول: تعريف السياق وبيان أهمية مراعاة السياق القرآني وبيان أنواعه .

المبحث الثاني : ذكرت فيه نماذج توضح موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من مراعاة السياق في تفسيره المسمى بـ "البحر المحيط "

٣- **خاتمةٍ**: ذكرتُ فيها أهم نتائج البحث .

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي القائم على تتبع أقوال أبي حيَّان – رحمه الله – في ذكره لقضية السياق في تفسيره المسمى "البحر المحيط"

وسوف تكون طريقتي في البحث – بإذن الله – ﷻ– كالتالي:

١- أقوم بذكر الآية التي تعرض فيها أبو حيَّان – رحمه الله – لقضية السياق ، ثم أتبع ذلك بذكر كلامه ثم أذكر في جانب الدراسة بيانَ مدى أخذه بقاعدة مراعاة السياق من عدمه.

٢- أقوم بشرح كل لفظ يحتاج إلى شرح وذلك من معاجم اللغة.

٣- أقوم بنسبة الآيات إلى سُوَرها، والأحاديث إلى ما رُوِيَتْ فيه من كتب السُّنَّة مُخَرِّجاً إياها على الكتب والأبواب، كما أقوم بنسبة الأشعار إلى قائليها، والتخريج من كتب اللغة على مادة الكلمة.

التمهيد

التعريف بأبي حيَّان – رحمه الله – ومنهجه في تفسيره

قبل الشروع في بيان موقف الإمام أبي حيَّان – رحمه الله – من رعاية السياق في تفسيره "البحر المحيط "أذكر – بإذن الله – ترجمة موجزة له ولمنهجه في تفسيره فأقول – وبالله التوفيق –:

أولاً: التعريف بأبي حيَّان – رحمه الله –:

هو محمد بن يوسف بن علي أبو حيَّان الأندلسي الغرناطي، ولد بغرناطة سنة أربع وخمسين وستمائة .

أخذ القراءات عن أبي جعفر الطباع والعربية عن ابن أبي الأحوص وابن الصائغ وبمصر عن البهاء بن النحاس وجماعة، وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو أربعمائة وخمسن شيخاً، رحل عن غرناطة إلى المشرق بسبب أنه تعرض لأستاذه أبي جعفر بن الطباع وتصدى لتأليف في الرد عليه وتكذيبه فرفع أمره للسلطان فأمر بإحضاره وتنكيله فاحتفى ثم ركب البحر ولحق بالمشرق .

قال الأدفوي: وكان يفخر بالبخل كما يفخر الناس بالكرم، وكان ثبتاً صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن، وكان شيخاً طوالاً حسن النغمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرباً بحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر .

تقدم في النحو وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية ومصر والحجاز، له يد طولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم، ومات بالقاهرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة .

من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير – إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب – التذييل والتكميل في شرح التسهيل . [1]

ثانياً: منهج أبي حيَّان - رحمه الله - في تفسيره "البحر المحيط":

جاء في سيرة أبي حيَّان – رحمه الله – أنه برع في علوم العربية ونبغ فيها، وكان لهذا أثره البيِّن في تفسيره، فنجده يهتم بكل المسائل اللغوية في الآيات من نحو وبلاغية وغيرها حتى صار تفسيره مرجعاً في تلك النواحي .

يقول الدكتور الذهبي – رحمه الله – إن تفسير البحر المحيط صار المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب الألفاظ القرآن الكريم، إذ أن الناحية النحوية هي أبرز ما فيه من البحوث التي تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية فهو ابن بجدتها[2] وفارس حلبتها، غير أنه – والحق يقال – قد أكثر من مسائل النحو في كتابه، مع توسعه في مسائل الخلاف بين النحويين، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير.

هذا وإن أبا حيَّان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية في تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يُهمل ما عداها من النواحي التي لها اتصال بالتفسير، فنراه يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها،

(١) ينظر ترجمته في: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي جـ ١ ص ٤٣٨ ، طبقات المفسرين للداوودي جـ ٢ ص ٢٨٧

(٢) بَجَدَ بالمكان يَبْجُدُ بُجوداً وبَجَداً: أَقام به ، وبَجَدَت الإبل بُجُوداً وبَجَّدَت: لزمت المرتع ، وعنده بَجْدَة ذلك بالفتح أي علمه ، ومنه يقال: هو ابن بَجْدَتها للعالم بالشيءِ المتقن له المميز له وكذلك يقال للدليل الهادي.
لسان العرب مادة " بجد " جـ ٣ ص ٧٧.

كما أنه لا يغفل الناحية البلاغية في القرآن، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف في ذلك .

هذا، وإن أبا حيَّان – رحمه الله تعالى – ينقل في تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب، كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه في مسائل النحو على الخصوص .

وكثيراً ما يحمل أبو حيَّان على الزمخشري حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشري من مهارة فائقة في تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه، حيث يصفه بأنه أوتى من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ .

ونهاية القول فإن أبا حيَّان قد غلبت عليه في تفسيره الناحية التي برز فيها وبرع فيها وهى الناحية النحوية التي طغت على ما عداها من نواحي التفسير [1]

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي جـ ١ ص ٣٢٦ ط مكتبة وهبة طبعة سادسة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م

المبحث الأول

تعريف السياق وبيان أهمية مراعاة السياق القرآني وبيان أنواعه

أولاً: تعريف السياق.

تدور استعمالات لفظ السياق في اللغة على معنى التتابع .

فهو مأخوذ من: انْساقَت الإبلُ وتَساوَقَت تَساوُقاً: إذا تتابعت وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة والمساوَقة المُتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً.(١)

وقال الزمخشري – رحمه الله – "تساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و"إليك يُساق الحديث "وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سَرْده "(٢)

السياق القرآني اصطلاحاً :

عُرِّف السياق القرآني بأنه "ما يحيط بالنص من عواملَ داخليةٍ أو خارجيةٍ لها أثر في فهمه من سابق أو لاحقٍ به، أو حال المخاطِب والمخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه "انتهى (٣)

ثانياً: أهمية مراعاة السياق القرآني.

اهتم المفسرون ببيان أهمية مراعاة السياق القرآني والتنبيه على خطر إغفاله، لذا نجد من شروطهم التي وضعوها لقبول التفسير بالرأي مراعاة السياق.

---

(١) لسان العرب مادة " سوق" جـ ١٠ ص ١٦٦ ط دار الفكر – بيروت .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري مادة " سوق " ص ٣١٤ ، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير باب السين مع الواو جـ ٢ ص ٤٢٣ ط المكتبة الإسلامية

(٣) "السياق القرآني وأثره في التفسير " المطيري عبد الرحمن بن عبد الله سرور جرمان ص ٦٤ رسالة ماجستير المملكة العربية السعودية – جامعة أم القرى ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

يقول العلامة الزرقاني – رحمه الله – في بيان المنهج الواجب على المفسر للقرآن أن يسلكه: يجب عليه أن ينهج منهج الصواب والسداد باتباع ما يأتي:

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن فإن لم يجده طلبه من السنة لأنها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله شاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل وخير ما فسرته بالوارد .

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعا ما يأتي:

١- البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .

٢- إرداف ذلك بالكلام على التراكيب من جهة الإعراب والبلاغة على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية .

٣- تقديم المعنى الحقيقي على المجازي بحيث لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة .

٤- ملاحظة سبب النزول فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد كما سبق تحقيقه في مبحث أسباب النزول .

٥- مراعاة التناسب بين السابق واللاحق بين فقرات الآية الواحدة وبين الآيات بعضها وبعض .

٦- مراعاة المقصود من سياق الكلام "[1] .

مما سبق يتبين لنا أنَّ مراعاة سياق الآيات لتفسير لفظ في آية منها أمرٌ ضروري لكل مفسر وهو يدل على شيئين:

---

(١) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ٢ ص ٤ وما بعدها ط دار الفكر – بيروت طبعة أولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م

أولهما: أن تفسير اللفظة القرآنية لا يجب أن يكون بمعزلٍ عن بقية ألفاظ الآية الكريمة وما يحيط بها من ملابساتٍ كسبب نزولها ومعرفة المخاطب بها، بل وما سبقها آيات، فالآيات كلها تجري في سياق متصلٍ، بعضُها يبين بعضاً .

ثانيهما: أن المفسر عندما يربط الآية بما سبقها وما تلاها فهو بذلك يتوصل للوجه الأقرب للصواب في بيانها، وهذا يدل على مدى تعمقه وفهمه للقرآن الكريم، بخلاف تفسيره للآية منفردة .

لذا نجد أكابر العلماء يبينون أهمية مراعاة السياق في بيان الآيات ونصوا على اشتراطها في التفسير .

يقول ابن القيم – رحمه الله – في الأثر المترتب على عدم مراعاة سياق الآية "السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة .

وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى " ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ " [1] كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير"[2]

ويقول ابن دقيق العيد – رحمه الله – أَمَّا السِّيَاقُ وَالْقَرَائِنُ: فَإِنَّهَا الدَّالَّةُ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ كلامه، وَهِيَ الْمُرْشِدَةُ إِلَى بَيَانِ الْمُجْمَلات، وَتَعْيِينِ الْمُحْتَمَلات، فَاضْبُطْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ فَإِنَّهَا مُفِيدَةٌ فِي مَوَاضِعَ لا تُحْصَى [3]

---

(١) الدخان: ٤٩

(٢) بدائع الفوائد لابن القيم جـ ٤ ص ١٣١٤ ط دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

(٣) إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لتقي الدين ابن دقيق العيد جـ ٢ ص ١٩ ط مطبعة السنة المحمدية

ثالثاً: أنواع السياق القرآني .

لما كان فهم الآية فهماً صحيحاً يترتب على الإحاطة بكل ما يعين على الوصول لوجه الصواب فيها نجد أن كلمة السياق يندرج تحتها كثيرٌ من أنواع السياقات التي اشترطها المفسرون صراحة أو تلميحاً، وسوف أذكر – إن شاء الله تعالى – أهم أنواع هذه السياقات، والتي يترتب على الجهل بها وعدم مراعاتها الخطأُ في فهم كتاب الله – ﷻ– فأقول – وبالله التوفيق –:

١– سياق سبب النزول:

من السياقات القرآنية الهامة التي أوجب المفسرون رعايتها في تفسير كتاب الله –ﷻ – سياق النزول.

فقد نصَّ العلماءُ على أهمية العلم بسبب نزول الآية قبل الشروع في تفسيرها، فسبب النزول هو السياق الذي نزلت فيه الآية، ولا مناص من التدبر فيه حتى يُعلم الوجهُ الصحيح للآية، وإذا أُهمل سبب النزول من البعض فإنه يخطئ في فهم الآية وربما يفسرها على غير الغرض الذي نزلت من أجله

قال الواحدي – رحمه الله –: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يُعرف ما نواه الحالف رُجِعَ إلى سبب يمينه وما هيّجها وأثارها، وذكر السيوطي – رحمه الله – أن العلم بسبب النزول يوقف على المعنى ويزيل الإشكال .انتهى [١]

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٢ ط دار الحديث – القاهرة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ، مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٧٢ ط دار الصحابة للتراث ، الإتقان في علوم القرآن لأبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، النوع التاسع جـ ١ ص ٦١ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت

ومن الأمثلة التي توضح أهمية مراعاة سياق سبب نزول الآيات والفرق بين من يعرف السبب ومن يجهله ما جاء عن عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها – في تفسير قول الله – ﷻ – (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)[1] .

فقد روى مسلم في صحيحه – بسنده – عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَ: قُلْتُ لَهَا : إِنِّي لأَظُنُّ رَجُلاً لَوْ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مَا ضَرَّهُ، قَالَتْ: لِمَ؟ قُلْتُ: لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ " إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

فَقَالَتْ: مَا أَتَمَّ اللَّهُ حَجَّ امْرِئٍ ولا عُمْرَتَهُ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَلَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ لَكَانَ فلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَهَلْ تَدْرِي فِيمَا كَانَ ذَاكَ؟ إِنَّمَا كَانَ ذَاكَ أَنَّ الأنصار كَانُوا يُهِلُّونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِصَنَمَيْنِ عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُمَا إِسَافٌ وَنَائِلَةُ ثُمَّ يَجِيئُونَ فَيَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ثُمَّ يَحْلِقُونَ، فَلَمَّا جَاءَ الإسلام كَرِهُوا أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَهُمَا لِلَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَتْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ – ﷻ – " إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ " إِلَى آخِرِهَا قَالَتْ: فَطَافُوا [2] .

فهنا يظهر لنا أن عروة – رضي الله عنهما – لمَّا كان غيرَ عالمٍ بسبب نزول الآية الكريمة فسرها على غير وجهها واستخرج منها حكماً على خلاف سياق نزولها، ففهم أن نفي الجناح يفيد الإباحة، وإنما كان نفي الجناح إشارة إلى ما تحرَّج منه الأنصار من السعي بين الصفا والمروة لما كانوا يفعلونه أيام الجاهلية، ولما كانت عائشة – رضي الله عنها وعن أبيها – عالمة بقصة الآية وسبب نزولها صححت له فهمه المغلوط .

---

(١) البقرة: ١٥٨

(٢) صحيح مسلم ، كتاب: الحج ، باب: بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن . صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٥ ص ٢٥ حديث رقم ١٢٧٧

٢- السياق اللغوي:

وهو الذي يُراعى فيه تعدد المعنى للفظ الواحد حسب موضعه والسياق الذي ورد فيه .

إنَّ من بلاغة العرب المبنية على رعاية السياق في الكلام إتيانهم باللفظ الواحد في عدَّة مواضع ويريدون به في كل مرةٍ معنىً مختلفاً عن الآخر، بل قد يكون اللفظ في موضع له معنىً عكس معناه في موضعٍ آخر، وهذا ما يُعرف في لغة العرب بعلم "الأضداد ".

وقد رمى الشعوبيون الذين يزرون بالعرب ولا يرون لهم فضلاً رموا العرب بنقصان الحكمة وقلة البلاغة وكثرة الالتباس في كلامهم لورود ألفاظ الأضداد في لغتهم، وهذا رأي باطل لا يرجع إلى حقيقة أو صواب، بل يرجع إلى حقد وضغينة على العرب في نفوس هؤلاء الشعوبيين من غير العرب، لأن مردَّ الأمر في مسألة الأضداد في اللغة إلى سياق الكلام وتعلُّق أوله بآخره وإلى قرائن الحال التي يكون فيها الناس أثناء التخاطب، وليس مرده إلى تشابه الألفاظ أو اختلافها فحسب . (١)

وقد ردَّ الأنباري – رحمه الله – هذا الكلام فقال "إنَّ كلامَ العرب يصحِّح بعضُه بعضاً، ويَرتبِط أوله بآخره، ولا يُعْرَفُ معنى الخطابِ منه إلاَّ باستيفائه، واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوعُ اللَّفظَةِ على المعنييْن المتضادَّيْن، لأَنَّها يتقدَّمُها ويأْتي بعدَها ما يدلُّ على خصوصيَّةِ أَحد المعنييْن دون الآخر، ولا يُراد بها في حالِ التكلُّم والإِخبار إِلاَّ معنًى واحد، فمن ذلك قول الشَّاعِر:

---

(١) من مقدمة " الأضداد في كلام العرب " لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١ هـ ص ٢٠ ط دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط ثانية ١٩٩٦ م تحقيق دكتورة / عزة حسن

كـلُّ شَـيْءٍ مـا خَـلاَ المَـوْتَ جَلَـلْ ∴ والفَتَـى يَسْـعَى ويُلْهِيـه الأَمَـلْ

فدلّ ما تقدَّم قبل جلل وتأَخَّر بعده على أَنَّ معناه: كلُّ شيءٍ ما خَلا الموت يَسيرٌ، ولا يتوهَّم ذو عقل وتمييز أَنَّ الجَلَلَ هاهنا معناه عظيم "[1]

والجَلَل في اللغة: الشيء العظيم والصغير الهيِّن، وهو من الأَضداد في كلام العرب، ويقال للكبير والصغير جَلَل، يقال: جلّ الشيءُ يجلُ جلالاً وجلالةً وجُلال: عَظُمَ، وجل فلان في عيني: عَظُمَ، وقوم جِلّة: ذوو أخطار [2].

ومن ألفاظ العرب التي تأتي بأكثر من معنى ويوضح معناها سياق الكلام لفظ الإحصان الذي أَصله المنعُ، فالمرأَة تكون مُحْصَنَة بالإسلام والعَفافِ والحريّة والتزويج [3]

وعلى هذا سار المفسرون، ففي تفسير قول الله – ﷻ– (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [4] نرى ابنَ كثير –رحمه الله– يردُّ قولَ من قال إن المراد بالإحصان في قوله " أُحْصِنَّ " الإسلامُ، ويرجِّح أن المراد به التزويج وذلك لمراعاة سياق الآية فيقول "والأظهر – والله أعلم– أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه،

(١) الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري ص ٢ ط المكتبة العصرية – بيروت ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ط ١٤٠٧ هـ ١٩٨٩ م .

(٢) لسان العرب مادة (جلل) جـ ١١ ص ١١٦.

(٣) لسان العرب مادة (حصن) جـ ١٣ ص ١٢٠.

(٤) النساء: ٢٥.

حيث يقول – ﷻ– " وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ "[1] والله أعلم، والآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله " فَإِذَا أُحْصِنَّ "أي تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه ". [2] انتهى .

فلفظ الإحصان هنا جاء بمعنى الحرية في قوله " الْمُحْصَنَاتِ "الأول والأخير، وبمعنى العفة عن الزنا في قوله " مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ "، وبمعنى الزواج في قوله " أُحْصِنَّ "، كل هذه المعاني المتعددة في لفظٍ واحد في آية واحدة، وسياق الكلام هو الذي بيَّن معنى كل لفظة منها في موقعها .

٣- سياق ترتيب النزول:

وهو السياق الزماني لنزول آيات القرآن الكريم، وهذا السياق القرآني من السياقات المهمة، وتنبع أهميته في أن معرفة ترتيب نزول الآيات يترتب عليه أمور جليلة منها: معرفة تاريخ التشريع الإسلامي ومنها: معرفة المنهج التربوي في الإسلام ومنها: معرفة الناسخ من المنسوخ، الأمر الذي يترتب عليه الاستنباط الصحيح للأحكام الشرعية، فمن شروط النسخ معرفة المتقدم والمتأخر من النصين القرآنيين، ولولا ذلك لُعمِل بالمنسوخ دون الناسخ .

وتظهر أهمية معرفة هذا الترتيب في أن ترتيب النزول يختلف عن ترتيب الكتابة في المصحف، فقد تقع الآية الناسخة في المصحف قبل الآية المنسوخة وذلك كقوله (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[3]

(١) النساء: ٢٥

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ١٥٧ ط مكتبة الصفا

(٣) البقرة: ٢٣٤.

فقد جاء بعدها ببضع آيات قول الله – ﷻ – (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [(١)] فصارت الأربعة أشهر وعشراً ناسخة للحول [(٢)] .

وبهذا قال ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَابْنُ زَيْدٍ وَالرَّبِيعُ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قُلْتُ لِعُثْمَانَ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي"الْبَقَرَةِ: " وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا – إِلَى قَوْلِهِ– غَيْرَ إِخْرَاجٍ قَدْ نَسَخَتْهَا الآيَةُ الأُخرى فَلَمْ تَكْتُبْهَا أَوَ تَدَعُهَا؟ قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي لا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ . [(٣)]

فلو لم يكن المتعرض لتفسير كتاب الله متنبهاً لهذا السياق لوقع في خطأ .

٤- سياق السابق واللاحق:

وهو النظر في ترابط آيات القرآن الكريم بعضها مع بعض، وكذلك النظر في جُمَله في الآية الواحدة، حتى يتبين بأولها ما أُريد بآخرها، وبآخرها ما أُريد بأولها .

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله – "فالذي يكون على بالٍ من المستمع والمتفهم الالتفاتُ إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جُمَلٍ فبعضها متعلقٌ بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن ردِّ آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف،

---

(١) البقرة: ٢٤٠ .

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم بن سلامة ص ١٥ ط مكتبة المتنبي

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٣ ص ٢٢٣والحديث رواه البخاري في كتاب التفسير، باب وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا " ص ٧٢٩ حديث رقم ٤٥٣٦ ط دار الحضارة للنشر والتوزيع .

فإن فرَّق النظرَ في أجزائه، فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض "[1] انتهى .

فلو أن المتعرض لتفسير كلام الله – ﷻ– قد فسر كل آية على حدة دون النظر في سابقتها ولاحقتها فإنه بذلك يقطع الصلة الثابتة بين كلام الله –ﷻ – ويخرج نظم القرآن عن ترابطه الوثيق .

من ذلك ما نراه من بعض المتهجمين على مقام القرآن بتفسيره بغير علم وادعاؤهم أن الإنسان حرٌّ في اختيار الإيمان والكفر ويستدلون على ذلك بقول الله (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) [2] ويقتصرون على هذه الجزئية فقط دون النظر فيما تلاها من آيات توضح المراد بالآية ، فيكونون كمن قرأ " لا تَقْرَبوا الصَّلاةَ " [3] وسكت ! .

فهؤلاء يرتبون على كلامهم هذا أنه ما دام الله – ﷻ– قد جعل الأمر بمشيئة الإنسان فمعنى ذلك أن من حق المسلم أن يخرج من الإسلام ويمكن أن يدخل الجنة ما دام الأمر مباحاً !

لكن سياق الآيات بخلاف ذلك .

وبيان ذلك أن قول الله " فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ " ليس تخييراً بين الكفر والإيمان، ذلك لأن التخيير يكون بين شيئين متساويين في النتيجة، لكن سياق الآيات بعد ذلك يبين أن الأمر بعيد عن ذلك، فالله –ﷻ – يقول بعدها في حق من اختار

(١) الموافقات للشاطبي جـ ٤ ص ٧١٦ ط دار الكتب العلمية – بيروت .
(٢) الكهف: ٢٩ .
(٣) النساء: ٤٣ .

الكفر " إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا "(١) .

وقال بعدها في حق من اختار الإيمان (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۞ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) (٢).

فيكون المعنى: من شاء فليؤمن وله الجنة، ومن شاء فليكفر وله النار، فهل هذا تخيير؟

وهنا نلحظ أنه عندما ذُكرت المشيئة ذُكر الإيمان أولاً ثم الكفر ثانياً، لكن حين ذُكر الجزاء ذُكر عقابُ الكفر ثم ثوابُ الإيمان ففُهم من ذلك أن تقديم الوعيد لمن كفر على الوعد لمن آمن يستفاد منه التنفيرُ من الكفر والنهي عنه، فلا تخيير كما يزعمون .

٥- **سياق المقصد:**

وهو النظر في مقاصد الألفاظ والغرض منها .

وهو ما يميِّز المتبحر في فهم مرامي ألفاظ القرآن من الواقف عند معاني الألفاظ فقط .

فنجد في تفسير الصحابة للقرآن الكريم من أوْلَى هذا الأمر اهتماماً يليق به، فنجدهم يهتمون بمقاصد الكلام حتى يتوصلوا للتفسير الصحيح للآية الكريمة، في الوقت الذي وقف غيرهم على ظاهر الآية دون التعمق في مرامي الكلام .

---

(١) الكهف: ٢٩

(٢) الكهف: ٣٠ - ٣١

ولعل أوضح مثال على هذا ما حدث بين ابن عباس – رضي الله عنهما – وبين الصحابة في تفسير قول الله – ﷻ– (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) (١) .

فقد روى البخاري في صحيحه – بسنده – عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ .

فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ "؟

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لا، قَالَ فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ " إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ "؟وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ " فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا " فَقَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلا مَا تَقُولُ. (٢)

فالصحابة – ﷺ– قد فسروا الألفاظ بما ظهر منها دون النظر إلى سواها، أما ابن عباس – رضي الله عنهما – فقد نظر في مقصد الكلام ونتيجته، فهو قد لمح في الكلام أن الحكمة التي من أجلها بُعثَ رسولُ الله – ﷺ – وهي البلاغ سوف تتمُّ عندما يدخل الناس في دين الله – ﷻ – أفواجاً وتلك علامة تمام الأمر بالأمن والأمان لهم ، فيدل ذلك كله على أن مهمته – ﷺ – قد تمت في هذه الدنيا ، إذن تكون النتيجة أن دخول الناس أفواجاً في الإسلام علامة على قرب أجل النبي – ﷺ– لذا وافق أمير

(١) سورة النصر .

(٢) رواه البخاري في كتاب: التفسير، باب: قوله " فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا "ص ٨٢٦ حديث رقم ٤٩٧٠ .

المؤمنين عمر – ﷺ– على تفسير ابن عباس – رضي الله عنهما – للسورة لأنه راعى سياق الكلام .

وهذا مما يوضح أهمية مراعاة العوامل الخارجية المتعلقة بنزول الآيات لفهمها فهماً صحيحاً .

٦ـ سياق الحال:

وهو نزول الآية تذكر حكماً على صورة من صور أحوال المعاصرين لنزول القرآن مع عموم الحكم على هذه الصورة وغيرها وكذلك عمومها في أحوالهم وأحوال غيرهم.

من ذلك قول الله –ﷻ – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [(١)] فالآية الكريمة لمن لا يدرك سياقها قد يفهم منها خصوص التحريم بتلك الصورة المذكورة فقط، فيقصر تحريم الربا على كونه أضعافاً مضاعفة فقط! .

لكن الحقيقة أن هذا قيد غير مقصود من الآية الكريمة، فهي قد نزلت مراعية لحال المخاطبين بها مع كونها عامة في حالتهم تلك وفي وغيرها من الأحوال المتعلقة بحرمة الربا عموماً، لأن الآية نزلت موافقة لحال أهل مكة .

ذلك أنه كان من عادة المشركين في الجاهلية أنّ الرجل منهم كان يكون له على الرجل مالٌ إلى أجلٍ، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخِّر عنى ديْنك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك، وبذلك يستغرق بالشيء الطفيف مالَ المديون، فذلك هو " الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً " فنهاهم الله– ﷻ– في إسلامهم عنه. [(٢)]

---

(١) آل عمران: ١٣٠

(٢) جامع البيان للطبري جـ ٣ ص ١١٩ ، الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٤٠٥ ط دار الكتب العلمية .

فإذا جاء من يفسر الآية وهو غير عالم بهذا السياق ربما قال إن النهي عن أكل الربا إذا كان أضعافاً مضاعفة فقط أما إذا لم يكن كذلك فلا بأس به، وهذا خطأ في فهم سياق الآية الكريمة، فإنها قد ذكرت أشنع حالات الربا وهي المضاعفة من جهة أن هذا النوع من الربا كان هو الشائع عندهم في ذلك الوقت حتى كأنه هو النوع الوحيد ؛ ولأن الأنواع الأخرى كانت تنتقل إليه، فلما جاء النهيُ جاء موافقاً لحالهم المشهورة، ولا يعني ذلك حلُّ غيره من أنواع الربا .

يقول الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي – رحمه الله – "هذا القيد وهو قوله " أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً " ليس لتقييد النهى به، أي ليس النهى عن أكل الربا في هذه الحالة وإباحته في غيرها، بل هذا القيد لمراعاة الواقع، ولبيان ما كانوا عليه في الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة. (١)

٧ـ سياق الحقيقة والمجاز:

الحقيقة: هي "اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له أولاً في اللغة، كالأسد المستعمل في الحيوان الشجاع العريض الأعالي .(٢)

والمجاز هو: "اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقةٍ، مع قرينة دآلةٍ على عدم إرادة المعنى الأصلي، والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قد تكون المشابهة وقد تكون غيرها، فإذا كانت المشابهة فهو استعارة، وإلا فهو مجاز مرسل "(٣)

(١) الوسيط للإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي جـ ٣ ص ٣٤٤ ط مطبعة السعادة.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام لعلي بن محمد الآمدي جـ ١ ص ٤٦ ط دار الصميعي للنشر والتوزيع.
(٣) ينظر: جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي ص ٢٣٧ وما بعدها .

والعرب بما لهم من تفنن في الكلام كانوا يستعملون المجاز كثيراً في كلامهم، فلما نزل القرآن نزل بلغتهم وبأساليبهم المعهودة في الكلام لكن بدرجة لا يرتقون إليه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز .

لذا كانت مراعاة سياق الحقيقة والمجاز من الأمور الهامة لكل متعرضٍ لتفسير كلام الله – ﷻ– فقد يجهل أحدهم كون الآية محمولة على المجاز فيحملها على الحقيقة أو العكس، وبهذا يخرج بعكس المعنى فيها .

ومع قول جمهور المفسرين بوقوع المجاز في القرآن فإننا نجد كثيراً منهم – مع قولهم بوقوع المجاز – لا يميلون للقول به في كل موطن دون حاجة، بل جعلوا الحقيقة هي الأصل ووضعوا للقول بالمجاز شروطاً .

فيذكر تاج الدين السبكي – رحمه الله – أن حمل اللفظ إلى ما يتبادر إلى الذهن أولى، ومن ثَمَّ يُحمل على الحقيقة ما لم يترجح المجاز بشهرة أو غيرها كما لو قال: لا آكل من الشجرة فإنه يُحمل على ثمرها وإن كان على خلاف الحقيقة لترجحه.(١)

فعندما يأتي لفظ قرآني منسوب لله – ﷻ– ويترتب على حمله على الحقيقة طعن في ذات الله حينها ينبغي حمله على المجاز ، من ذلك قول الله –ﷻ– " قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى "(٢) .

فالنسيان المعاقب به هذا المخاطب هنا ليس هو النسيان بمعناه الحقيقي وإلا لوقعنا في الطعن في ذات الله –ﷻ – وعلمه ، بل المقصود به إهمال ذلك الكافر المعرض عن آيات الله – ﷻ – بأن يُعامل معاملة الشيء المنسي المهمل .

---

(١) الأشباه والنظائر لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي جـ ١ ص ٢٧٤ ط دار الكتب العلمية –بيروت .

(٢) طه ٢٦ .

فالنسيان هنا جاء على سبيل المجاز وليس على سبيل الحقيقة ، ومعناه كما ذكر ابن كثير – رحمه الله – " أي : لما أعرضتَ عن آيات الله ، وعاملْتَها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك تناسيتَها وأعرضتَ عنها وأغفلتَها ، كذلك نعاملك اليوم معاملة من ينساك .[1] أ.هـ

وقد جاء التعبير بالنسيان هنا على سبيل المشاكلة : هي أن يذكر الشيءُ بلفظِ غيره لوقوعه في صحبته كقوله تعالى " تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ "[2] المراد : ولا أعلم ما عندك وعبّر بالنفس للمشاكلة ، واستعمال المشاكلة له وقعٌ بلاغيٌ مؤثرٌ في نظم الكلام تكسبه جلالةً ومهابةً وجمالاً حسب سياق الكلام [3].

فالتعبير بالنسيان في الآية الكريمة في مقابلة نسيانهم لأوامر الله –ﷻ – فيه تقبيح لصنيعهم وتوَّعد لهم بالمعاملة بالمثل ، ولو قوبل فعلهم بعقاب بلفظ آخر لما كان له مثل هذا الوقع من الترهيب والتخويف لهم ، حيث توعدهم بمعاملتهم معاملة الناسي لهم بمعنى الترك والإهمال .

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٥ ص ١٨٩

(٢) المائدة ١١٦

ينظر : جواهر البلاغة ص ٢٩٨ ، علم البديع لبسيوني عبد الفتاح فيود ص ١٩٤ ، ١٩٥ ط مؤسسة المختار للنشر والتوزيع دار المعالم الثقافية الطبعة الثانية ١٩٩٨ م

المبحث الثاني

موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من رعاية السياق في تفسيره

سوف أذكر – مستعيناً بالله – ﷻ – في هذا المبحث بعضاً من الأمثلة التي توضح موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من مراعاة السياق في تفسيره، مع دراسة هذه المواقف لبيان مدى صحتها، فأقول وبالله التوفيق :

المطلب الأول

موقف أبي حيَّان - رحمه الله – من تغليب الحقيقة على المجاز

في قول الله – ﷻ – ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

قال أبو حيَّان – رحمه الله – في تفسيره (قال البراء بن عازب ، والزهري ، وقتادة ، سبب نزولها أن الأنصار كانوا إذا حجوا واعتمروا يلتزمون شرعاً أن لا يحول بينهم وبين السماء حائل ، فكانوا يتسنمون ظهور بيوتهم على الجدران ، وقيل : كانوا في الجاهلية وفي بدء الإسلام إذا أحرم أحدهم بحج أو عمرة لم يأت حائطاً ، ولا بيتاً ، ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدينة نقب في ظهر بيته نقباً يدخل منه ويخرج ، أو ينصب سُلَّماً يصعد منه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ، ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل إحرامه ، ويرون ذلك بِرّاً .

وملخص هذه الأسباب أن الله تعالى أنزل هذه الآية راداً على من جعل إتيان البيوت من ظهورها بِرّاً ، آمراً بإتيان البيوت من أبوابها ، وهذه أسباب تضافرت على

(١) البقرة: ١٨٩

أن البيوت أريد بها الحقيقة ، وأن الإتيان هو المجيء إليها ، والحمل على الحقيقة أولى من ادعاء المجاز، مع مخالفة ما تضافر من هذه الأسباب، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر أن الأهلة مواقيت للحج استطرد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج زاعمين أنه من البِرِّ ، فبين لهم أن ذلك ليس من البِرِّ، وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج .[١] انتهى بتصرف يسير.

الدراسة:

سبق في بيان أهمية مراعاة السياق ما ذكره الإمام الزرقاني – رحمه الله – أن من شروط التفسير : تقديم المعنى الحقيقي على المجازي بحيث لا يُصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة .

وهنا تظهر لنا مراعاة أبي حيَّان – رحمه الله – لهذا الشرط من جهة، ومن جهة أخرى ميله للأخذ بما صحَّ في سبب النزول وترجيحه للحقيقة بسببه.

حيث ذكر أقوال القائلين بالمجاز فيها على أن ذلك ضربُ مثلٍ: والمعنى ليس البر أن تسألوا الجُهَّالَ ولكن اتقوا واسألوا العلماءَ، أو أنه ذكر إتيان البيوت من أبوابها مثلاً لمخالفة الواجب في الحج، وذلك ما كانوا يعملونه في النسيء، أو أن إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها كناية عن التمسك بالطريق الصحيح ... الخ. [٢]

وممن حملها على المجاز أبو عبيدة – رحمه الله – حيث قال " أي اطلبوا البرّ من أهله ووجهه ولا تطلبوه عند الجهَلة المشركين"[٣] .

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٢ ص ٧١ ط دار الكتب العلمية – بيروت .
(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ ٢ ص ٧١ .
(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ١ ص ٦٨ ط مكتبة الخانجي – القاهرة .

وكذلك الزمخشري – رحمه الله – فقال "أي وباشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن تُباشَر عليها ولا تعكسوا، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب" (١) .

لكن أبا حيَّان – رحمه الله – رجَّح القول الذي يحمل الآية على حقيقتها أخذاً بما صحَّ في سبب نزولها، وسيراً على القاعدة التفسيرية التي تقدم القول بالحقيقة على القول بالمجاز، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على براعته اللغوية ومراعاته لقواعد التفسير في تفسيره.

وبالنسبة لما ذكره من سبب النزول فقد روى البخاري في صحيحه – بسنده – عن الْبَرَاء – ﷺ – قال : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ فِينَا، كَانَتْ الأنصارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأنصار فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ { وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا } (٢) .

فهذه الروية الصحيحة تبين سبب نزول الآية بما يجعل حمل الآية على المجاز أمراً لا ضرورة له.

(١) الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٢٣٣

(٢) رواه البخاري في كتاب العمرة باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى{ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا }.
ينظر : صحيح البخاري جـ٢ ص ٢٨١ حديث رقم ١٨٠٣

المطلب الثاني

موقف أبي حيَّان - رحمه الله - من رعاية سياق سبب النزول

يقول الله – ﷻ– ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (١) .

ذكر أبو حيَّان – رحمه الله – ما قيل في سبب نزول الآية الكريمة فقال: "روي عن ابن عباس أنها نزلت في ناس من اليمن يحجون بغير زاد، ويقولون: نحن متوكلون بحج بيت الله أفلا يطعمنا؟ فيتوصلون بالناس، وربما ظلموا وغصبوا، فأُمِروا بالتزود، وأن لا يَظلموا أو يكونوا كَلاًّ على الناس.

وروي عن ابن عمر قال: إذا أحرموا ومعهم أزودة رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر، فنهوا عن ذلك، وأُمروا بالتحفظ بالزاد والتزود .

فعلى ما روي من سبب نزول هذه الآية يكون أمراً بالتزود في الأسفار الدنيوية، والذي يدل عليه سياق ما قبل هذا الأمر وما بعده أن يكون الأمر بالتزود هنا بالنسبة إلى تحصيل الأعمال الصالحة التي تكون له كالزاد إلى سفره للآخرة، ألا ترى أن قبله " وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ "ومعناه الحث والتحريض على فعل الخير الذي يترتب عليه الجزاء في الآخرة؟ وبعده " فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى "والتقوى في عرف الشرع والقرآن عبارة عن ما يتقى به النار؟ (٢).

---

(١) البقرة ١٩٧ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان جـ ١ ص ١٠١ .

ثم قال في نهاية كلامه عن الآية وما ورد فيها من أقوال (فتلخص من هذا كله ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه أمر بالتزود في أسفار الدنيا، فيكون مفعول: تزودوا، ما ينتفعون به، فإن خير الزاد ما تكفون به وجوهكم من السؤال، وأنفسكم من الظلم، وقال البغوي: قال المفسرون: التقوى هنا: الكعك والزيت والسويق والتمر والزبيب وما يشاكل ذلك من المطعومات.

والثاني: أنه أمر بالتزود لسفر الآخرة، وهو الذي نختاره.

والثالث: أنه أمر بالتزود في السفرين، كأن التقدير: وتزودوا ما تنتفعون به لعاجل سفركم وآجله)[1].

الدراسة:

على الرغم من اهتمام أبي حيَّان – رحمه الله – بمراعاة السياق في تفسيره وإكثاره من التنصيص عليه واهتمامه بسياق سبب النزول في مواضع من تفسيره كما سبق بيانه في المطلب الأول، إلا أنه هنا حمله رعايةُ سياقٍ على إهمال آخر، فنظر فيما سبق الأمر بالتزود وما تلاه وأهمل سبب النزول الوارد في بيان الآية الكريمة، ذلك أن سبب النزول إذا صحَّ يكون هو الفيصل في تحديد المراد من الألفاظ.

فبالنسبة لحديث ابن عباس – رضي الله عنهما – الذي ذكره أبو حيَّان – رحمه الله – فإنه حديث صحيح صريح في سبب نزول الآية الكريمة فقد رواه البخاري في صحيحه – بسنده – عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَ: كَانَ أَهْلُ

(١) البحر المحيط لأبي حيان جـ ١ ص ١٠١.

الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى "(١) .

فهذا الحديث الصحيح يوضح سبب نزول الآية الكريمة، لكن أبا حيَّان – رحمه الله – على ما يظهر من كلامه ترك الحديث الثابت في سبب النزول وجعل سياق الآية وكأنه بعيد عنه ، فحمل الآية على المجاز دون الحقيقة التي يقويها سبب النزول، ولو أنه سار على قاعدة عموم اللفظ لا خصوص السبب وفسر الآية على سبب نزولها ثم قال بعد ذلك بالعموم في المعنيين لكان ذلك أفضل من ترك الحديث الصحيح الذي يبين سبب نزول الآية الكريمة .

وممن حملها على سبب النزول الإمام الطبري – رحمه الله – حيث قال بعد ذكر الروايات (فتأويل الآية إذاً: فمن فرض في أشهر الحجِّ الحجَّ فأحرم فيهن فلا يرفثن ولا يفسقن، فإن أمْرَ الحج قد استقام لكم، وعرَّفكم ربُّكم ميقاتَه وحدودَه، فاتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من أمر حجكم ومناسككم، فإنكم مهما تفعلوا من خيرٍ أمركم به أو ندبكم إليه يعلمه، وتزودوا من أقواتكم ما فيه بلاغكم إلى أداء فرض ربكم عليكم في حجكم ومناسككم فإنه لا برَّ لله – جل ثناؤه – في تركككم التزود لأنفسكم ومسألتكم الناس ولا في تضييع أقواتكم وإفسادها، ولكن البر في تقوى ربكم باجتناب ما نهاكم عنه في سفركم لحجكم وفعل ما أمركم به، فإنه خير التزود، فمنه تزودوا)(٢).

ومن العلماء من حمل الآية على المعنى الحقيقي الذي جاءت به الروايات ، ثم جعل المعنى المجازي مشاراً إليه في بقية الآية " فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى "

(١) رواه البخاري في كتاب: الحج ، باب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " ص ٢٤٤ حديث رقم ١٥٢٣

(٢) جامع البيان للطبري جـ ٢ ص ٣٨٣

يقول ابن كثير – رحمه الله – بعد أن ذكر روايات سبب نزول الآية الكريمة (وقوله " فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال " وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ " [1] لما ذكر اللباس الحسي نَبّه مرشدًا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع، والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع) انتهى [2] .

ويقول الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي – رحمه الله – بعد ذكره للقولين "والذي نراه أن الجملة الكريمة تسع القولين، فهي تدعو الناس إلى أن يتزودوا بالزاد المعنوي النفسي الذي يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والإكثار من العمل الصالح، وفي الوقت نفسه هي تأمرهم – أيضاً – بأن يتزودوا بالزاد المادي الحقيقي الذي يُغنيهم عن سؤال الناس، ويصون لهم ماء وجوههم .

وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ في حقيقته ومجازه، وهو استعمال شائع مستساغ عند كثير من العلماء "انتهى [3].

ومن العلماء مَنْ جعل الأمر بالتقوى مشتملاً على الأمر بالتزود الحسي وسبباً فيه، فيقول الإمام البقاعي – رحمه الله – " الخير هو الزاد على وجهٍ يعُمُّ الحسيَّ والمعنويَّ زيادةً في الحث عليه، إذ لا أضرَّ من إعواز الزاد لأكثر العباد فقال " وَتَزَوَّدُوا " أي التقوى لمعادكم الحاملة على التزود الحسي لمعاشكم الحامل على الزهد فيما في أيدي الناس "[4].

---

(١) الأعراف: ٢٦

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٢٨٢ ط مكتبة الصفا

(٣) تفسير الوسيط للشيخ طنطاوي جـ ١ ص ٥٦٠

(٤) نظم الدرر للبقاعي جـ ٣ ص ١٤٤ ط دار الكتاب الإسلامي – القاهرة

بل إن من العلماء من جعل الأمر بالتزود هنا يُقصد به التزود بالزاد الدنيوي في كل سفر سواء كان سفراً للحج أو الجهاد في سبيل الله، فنجد الإمام البخاري – رحمه الله – يذكر الآية في كتاب الجهاد تحت عنوان "بَاب حَمْلِ الزَّادِ فِي الْغَزْوِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " فروى بسنده عَنْ أَسْمَاءَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ وَلا لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ فَقُلْتُ لأبي بَكْرٍ: وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلا نِطَاقِي، قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ فَارْبِطِيهِ بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ وبالآخر السُّفْرَةَ فَفَعَلْتُ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ "[1] .

الخلاصة:

أن حَمْلَ أبي حيَّان – رحمه الله – لمعنى التزود على زاد الآخرة فقط وإهماله لما جاء في بيان سبب النزول هو من التكلف في تفسير الآية، ولو حمل الآية على المعنيين معاً لعدم امتناع ذلك لكن أفضل وأقرب للصواب، لا سيما وأن سبب النزول يوضح حمل الآية على التزود بالزاد الدنيوي، ومع ذلك فإن ألفاظ الآية لا تمنع القول الآخر، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله أعلم .

والعجيب من أبي حيَّان – رحمه الله – تحيُّزه الشديد لهذا القول وترجيحه على ما صح في سبب النزول حتى إنه ذكر كلامَ أبي بكر الرازي – رحمه الله – في بطلان مذهب من يسافرون بغير زاد تعللاً بالتوكل على الله ثم قال أبو حيَّان (ورُدَّ عليه بأن الكاملين في باب التوكل لا يُطعن عليهم إن سافروا بغير زاد، لأنه صح: لو توكلتم على

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ، بَاب: حَمْلِ الزَّادِ فِي الْغَزْوِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " ص ٤٨٧ حديث ٢٩٧٩

الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً، وتروح بطاناً [١] وقال تعالى " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ "[٢] وقد طوى قومٌ الأيامَ بلا غذاء، وبعضهم اكتفى باليسير من القوت في الأيام ذوات الأعداد، وبعضهم بالجرع من الماء .

وصح من حديث أبي ذر اكتفاؤه بماء زمزم شهراً [٣]، وخرج منها وله عُكَن [٤]، وأن جماعة من الصحابة اكتفوا أياماً كثيرة، كل واحد منهم بتمرة في اليوم .[٥]

لكن بالتدبر في هذه الردود أرى أنها لا تساعده على ما أراد.

فالحديث الأول يبين فيه النبي – ﷺ– أن التوكلَ الحقَّ على الله –ﷻ – لا ينافي العمل بالأسباب وعليه فلا ينافي التزود للسفر ما دام الأمر ميسوراً، ففي الحديث الذي أورده يقول رسول – ﷺ– "تغدو خِماصاً، وتروح بطاناً "فهذا هو التوكل الحق الذي

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد ، باب: التوكل على الله . ينظر تحفة الأحوذي جـ ٦ ص ٢١٥ حديث رقم ٢٣٤٣ ورواه الحاكم في مستدركه في كتاب الرقاق جـ ٤ ص ٣٥٤ حديث ٨٧٩٤ وقال: حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي في التلخيص.

(٢) الطلاق : ٣ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب: فضائل الصحابة باب: من فضائل أبي ذر – ﷺ – بمتن طويل وفيه (فَأَتَيْتُ زَمْزَمَ فَغَسَلْتُ عَنِّي الدِّمَاءَ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا وَلَقَدْ لَبِثْتُ يَا ابْنَ أَخِي ثلاثين بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إلا مَاءُ زَمْزَمَ فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةَ جُوعٍ) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٨ ص ٢٦٦ حديث ٢٤٧٣ ط دار الحديث.

(٤) العُكَنُ والأَعْكان الأَطْواء في البَطْن من السِّمَن ، يقال تَعَكَّنَ الشيءُ تَعَكُّناً إذا رُكِمَ بعضُه على بعض وانْثَنى . ينظر: لسان العرب مادة " عكن " جـ ١٣ ص ٢٨٨.

(٥) البحر المحيط لأبي حيان جـ ١ ص ١٠١

يشتمل على وجوب العمل بالأسباب، فالطير التي ضرب بها النبي – ﷺ– المثلَ لا تنام في أعشاشها وتنتظر الرزق بل هي تغدو وتروح، فالتوكل المقصود هنا هو اليقين برزق الله مع العمل بما يوصل إليه من أسباب وإلا ما قال "تغدو وتروح "

أما الأحاديث والآثار التي استدل بها من عمل الصحابة – ﷺ– فهي لا تساعده على ما أراد، فهذه الأحاديث تُحمل على حالات الضرورة التي لم يجد أصحابها بُدًّا من ذلك، وليس معناه أن كل واحد يقول أنا متوكل على الله ويسافر في الصحراء بغير زاد ويعرض نفسه للتهلكة.

أما حديث أبي ذر – رضي الله عنه – فقد صح في رواية إسلامه الطويلة في صحيح البخاري "فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً (١) لَهُ فِيهَا مَاءٌ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ "(٢).

ففي هذه الرواية ما يفيد أنه تزود لسفره ولم يخرج دون زاد، أما شربه من ماء زمزم مدة إقامته بمكة واكتفاؤه به فهذا من الضرورة التي وقع فيها، ولا منافاة بين ذلك وبين توكله على الله وتزوده قبل السفر ، والله أعلم.

(١) الشَّنُّ والشَّنَّةُ الخَلَقُ من كل آنية صُنِعَتْ من جلد وجمعها شِنَانٌ ، وتَشَنَّنَ السّقَاءُ واشْتَنَّ واسْتَشَنَّ أَخلَق والشَّنُّ القربة الخَلَق . ينظر: لسان العرب مادة " شنن " جـ ١٣ ص ٢٤١

(٢) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ، باب: إسلام أبي ذر الغفاري ﷺ .ص ٦٢٣ حديث رقم ٣٨٦١

المطلب الثالث

سياق النزول والاستدلال الفقهي

يقول الله – ﷻ– ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

يقول أبو حيَّان – رحمه الله – (" وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ " قال ابن عباس والزهري والضحاك: نزلت في كل مَنْ منع امرأة من نسائه عن النكاح بغيره إذا طلقها، وقيل: نزلت في ابنة عم جابر بن عبد الله طلقها زوجها، وانقضت عدتها فأراد رجعتها، فأتى جابر وقال: طلقتَ ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها؟ وكانت المرأة تريد زوجها، فنزلت .

وقيل: في معقل بن يسار، وأختِه جمل، وزوجِها أبي الوليد عاصم بن عدي بن العجلان، جرى لهم ما جرى لجابر في قصته، ذكر معناه البخاري.

فعلى السبب الأوّل يكون المخاطبون هم الأزواج، وعلى هذا السبب الأولياء، وفيه بُعد، لأن نسبة الطلاق إليهم هو مجاز بعيد، وهو أن يكون الأولياء قد تسببوا في الطلاق حتى وقع، فنسب إليهم الطلاق بهذا الاعتبار، ويبعد جداً أن يكون الخطاب في " وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا تَعْضُلُوهُنَّ " للأولياء، لتنافي التخاطب، ولتنافر الشرط والجزاء، فالأولى والذي يناسبه سياق الكلام أن الخطاب في الشرط والجزاء للأزواج، لأن الخطاب من أوّل الآيات هو مع الأزواج ولم يجر للأولياء ذكر، ولأن الآية قبل هذه خطاب مع الأزواج في كيفية معاملة النساء قبل انقضاء العدة، وهذه الآية خطاب لهم في

(١) البقرة: ٢٣٢

كيفية معاملتهم معهنّ بعد انقضاء العدّة، ويكون الأزواج المطلِّقون قد انتهوا عن العضل، إذ كانوا يفعلون ذلك ظلماً وقهراً وحمية الجاهلية، لا يتركونهنّ يتزوّجن من شئِن من الأزواج، وعلى هذا يكون معنى " أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ " أي: من يردن أن يتزوّجنه، فسموا أزواجاً باعتبار ما يؤولون إليه.

وعلى القول بأن الخطاب للأولياء يكون أزواجهن هم المطلِقون، سُموا أزواجاً باعتبار ما كانوا عليه، وإن لم يكونوا بعد انقضاء العدّة أزواجاً حقيقة.

وجهات العضل من الزوج متعددة: بأن يجحد الطلاق، أو يدعي رجعة في العدة، أو يتوعد من يتزوّجها، أو يسيء القول فيها لينفر الناس عنها، فنهوا عن العضل مطلقاً بأي سبب كان مما ذكرناه ومن غيره.

وقال الزمخشري: والوجه أن يكون خطاباً للناس، أي: لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا في حكم العاضلين، وصدر بما يقارب هذا المعنى كلامه ابن عطية، فقال " وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فلا تَعْضُلُوهُنَّ "الآية خطاب للمؤمنين الذين هم الأزواج، ومنهم الأولياء، لأنهم المراد في تعضلوهنّ . انتهى كلامه . (١)

ثم قال أبو حيَّان – رحمه الله – "وهذا التوجيه يؤول إلى أن الخطاب في: طلقتم، للأزواج، وفي " فلا تَعْضُلُوهُنَّ "للأولياء وقد بينا ما فيه من التنافر . (٢)

(١) البحر المحيط جـ ٢ ص ٢٢٠ ، الكشاف للزمخشري جـ ١ ص ٢٧٤ ، تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي جـ ١ ص ٥٦٩ ط مطابع دار الخير – بيروت

(٢) البحر المحيط جـ ٢ ص ٢٢٠

الدراسة:

سبق فيما ذكرته من أنواع السياق فيما يخص سياق سبب النزول ما ذكرته من أقوال العلماء في بيان أهمية معرفة سبب النزول وأنه من السياقات الهامة في بيان المعنى المراد من الآيات، بل إنَّ بعض الآيات يتوقف فهمها واستخراج الحكم الفقهي الصحيح منها على معرفة سبب النزول كما ذكرتُ في بعض الأمثلة .

ومن طرق معرفة سبب النزول ما ذكره الزرقاني – رحمه الله – بقوله (إن رُوي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول وإن لم يعتضد أي لم يُعزز برواية أخرى تقويه، وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمُه حكم المرفوع إلى النبي – ﷺ– لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه على حين أنه خبر لا مردَّ له إلا السماع والنقل أو المشاهدة والرؤية)[1] .

وبالنسبة للآية محل البحث فقد جاء في سبب نزولها ما رواه البخاري – رحمه الله – في صحيحه – بسنده – عَنْ الْحَسَنِ قَالَ حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ، قَالَ: زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا، لا وَاللَّهِ لا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رجلاً لا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآية " فلا تَعْضُلُوهُنَّ " فَقُلْتُ: الآن أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ [2] .

بعد هذا كله أقول: إن الرواية الصحيحة حَكَمٌ في بيان معنى الآية والمراد بها، وهي سياق من سياقات القرآن الكريم الواجب عدم إغفالها عند بيان المراد منها، وقد

(١) مناهل العرفان للزرقاني جـ ١ ص ٨٢ ط دار الفكر

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح: باب: من قال لا نكاح إلا بولي ، ص ٨٥٠ حديث رقم ٥١٣٠.

جاء في الرواية ما يوضح صراحةً أن المراد بالعضل هنا هو عضل الولي للمرأة وليس الزوج، فمخالفة ذلك مما يحتاج إلى دليل أقوى مما ثبت في بيانها .

ومن المستغرب هنا من أبي حيَّان – رحمه الله – أنه وصف نسبة العضل للأولياء بالبُعد، هذا مع أنه أشار للرواية ومصدرها ومع ذلك أهمل إعمالها في بيان المخاطبين بالآية الكريمة، فإذا كان الولي لم يُذكر في سياق الألفاظ في الآية فإنَّ الرواية الصحيحة الصريحة في بيان سبب النزول قد وضَّحته، وسبب النزول سياق ينبغي أن يُراعى مثل سياق ألفاظ الآيات .

وقد اعتمد القولَ بأن النهي عن العضل للأولياء الإمامان الطبريُّ وابنُ كثير – رحمهما الله – حيث اقتصر كلامهما على ذكر الروايات فيمن نزلت فيه الآية هل هو جابر أم معقل بن يسار وكلاهما وليَّان للمرأتين .

يقول الطبري – رحمه الله – (والصواب من القول في هذه الآية أن يقال: إن الله تعالى ذكره أنزلها دلالة على تحريمه على أولياء النساء مضارة من كانوا له أولياء من النساء، بعضلهن عمَّن أردن نكاحه من أزواج كانوا لهن، فبِنَّ منهن بما تَبينُ به المرأة من زوجها من طلاق أو فسخ نكاح .

وقد يجوز أن تكون نزلت في أمر معقل بن يسار وأمر أخته، أو في أمر جابر بن عبد الله وأمر ابنة عمه، وأي ذلك كان، فالآية دالة على ما ذكرت، ويعني بقوله تعالى " فلا تَعْضُلُوهُنَّ " لا تضيقوا عليهن بمنعكم إياهن أيها الأولياء من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن) (١) .

وقال ابنُ كثير – رحمه الله – بعد أن ذكر هذه الروايات في سبب النزول (وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه

(١) جامع البيان للطبري جـ ٢ ص ٦٦٠

لا بد في تزويجها من ولي) [١] .

وأجاز أبو السعود – رحمه الله – أن يكون الخطاب للأولياء أو للأزواج أو لعامة الناس [٢] .

من هذا كله يتبين لنا أن أبا حيَّان – رحمه الله – قد أهمل هنا سياقاً مهماً من سياقات القرآن الكريم بل وأهمها وهو سياق سبب النزول، وكان الأولى به إن لم يقيد المراد من الآية بالرواية الصحيحة ألا يُغفلها على الإطلاق، فلا مانع من القول بأن الخطاب للأولياء مراعاة لسبب النزول وقد يدخل فيه الأزواج أيضاً، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والعضل قد يحدث من الولي كما جاء في سبب النزول وقد يحدث من الزوج إن كان ذا سطوة ومنع امرأته التي طلقها من الزواج بغيره، والله أعلم .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٣٣٠

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ١ ص ٣٥٦

المطلب الرابع

استدلاله بالسياق على ردِّ الأقوال

يقول الله -ﷻ- ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (١).

يقول أبو حيَّان – رحمه الله – بعد أن ذكر أقوال العلماء في معنى الإسرار الوارد في الآية الكريمة – وأنه يأتي بمعنى الإظهار والإخفاء وأن اللفظ هنا يحتمل الوجهين فقال: (وأما من قال: إن معنى قوله: وأسروا الندامة، أخلصوا لله في تلك الندامة، أو بدت بالندامة أسرةُ وجوههم أي: تكاسير جباههم ففيه بُعْدٌ عن سياق الآية . (٢) انتهى باختصار يسير .

الدراسة :-

ذكر أبو حيَّان – رحمه الله – هنا أقوال العلماء في معنى الإسرار الوارد في الآية الكريمة، وذكر فيها قولين وهما أن الإسرار بمعنى الإخفاء أو بمعنى الإظهار، وذكر أن اللفظ يحتمل المعنيين، ثم ردَّ التوجيه الذي يحمل معنى الإخفاء على الإخلاص في الندم، وجعل مستنده في ردِّ هذا التوجيه هو سياق الآية الكريمة وهذا تفصيل لإجازته القولين وردِّه على من حمل معنى الإسرار على الصدق في الندم:

القول الأول:- أنّ (وَأَسَرُّوا) بمعنى أخفوا .

والمعنى أنّ زعماء المشركين أخفوا الندامة من وضعائهم وسِفْلتهم حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم، وبهذا قال الطبري والزمخشري رحمهما الله (٣) .

---

(١) يونس: ٥٤

(٢) البحر المحيط لأبي حيان جـ ٥ ص ١٦٧ط دار الكتب العلمية – بيروت

(٣) جامع البيان للطبري مجلد ٧ جـ ١١ ص ١٦٠ ، الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٣٤٠

الثاني:- أنهم أظهروا الندامة، وبهذا قال الإمام الماردِيني رحمه الله [١] ونُسِبَ هذا القول لأبي عبيدة رحمه الله [٢].

وقد سلك الإمام القرطبي – رحمه الله – مسلكاً وسطاً بين هذين القولين فقال " وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ "أي أخفوها، يعني رؤسائهم، أي: أخفوا ندامتهم عن أتباعهم (لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) وهذا قبل الإحراق، فإذا وقعوا في النار أَلْهَتْهُمُ النار عن التَصَنُّع، بدليل قولهم " قالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ "[٣] فَبَيَّنَ أنهم لا يكتمون ما بهم)) [٤] انتهى.

ولفظ الإسرار كما ذكر أبو حيَّان – رحمه الله – يحتمل كلا المعنيين، فقد ذكر الإمام الأنباري – رحمه الله – في بيان معنى الإسرار: أنه من الألفاظ التي تُستعمل في معانٍ متضادة فيأتي بمعنى الكتمان وهو الغالب عليه، ويكون بمعنى أظهرتُ.[٥].

وبالتأمل فيما قيل في معنى الإسرار من أقوال متضادة، واحتمال اللفظ للمعنيين أرى – والله أعلم – أنّ القول الأقرب للصواب هو قول من قال إنّ قوله تعالى (وَأَسَرُّوا) بمعنى أظهروا، وذلك لما يلي:-

أولاً:- أنّ الله – ﷻ– ذكر في القرآن الكريم تخاصمَ الكفار يوم القيامة بما يُظْهِر أنّ كل فريق منهم أظهر الندامة على كفره وتَبَعِيَّته للآخر، فالسادة تبرءوا من الضعفاء ونفوا أنهم كانوا سبباً في إضلالهم، والضعفاء ألقوا باللائمة على كبرائهم في ضلالهم .

(١) بهجة الأريب للماردِيني ص ١٠٩

(٢) الأضداد للأنباري ص ٤٥

(٣) سورة المؤمنون أية ١٠٦

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٨ ص ٣٢٥

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص ٤٥ ط المكتبة العلمية – بيروت

يقول الله – ﷻ– " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ "(١) .

فهذه الآيات توضح أنّهم جميعاً أظهروا ندمهم على الكفر حينما يرون العذاب يوم القيامة .

ثانياً :– ذكر الإمام الرازي – رحمه الله – وجهاً حسناً يؤيد هذا القول فقال (وأمّا من فسَّر الإسرار بالإظهار فقوله ظاهر، لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار) (٢) .

وبهذا يترجح القول بحمل الإسرار على إظهار الندم مع احتماله للمعنى الآخر .

أما بالنسبة لردِّ أبي حيَّان – رحمه الله – على من حمل الإخفاء على الإخلاص في الندم فقد ذكر هذا التوجيه الإمامُ الزمخشري – رحمه الله – على قول من حمل الإسرار على معنى الإخفاء فقال (وقيل أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سرّ الشيء: خالَصَه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة)(٣) .

وقال الرازي – رحمه الله – (فيه تهكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته ولم ينفعهم، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف) (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥ – ١٦٦ – ١٦٧

(٢) مفاتيح الغيب للرازي جـ ٨ ص ٣٨٢

(٣) الكشاف للزمخشري جـ ٢ ص ٣٤٠

(٤) مفاتيح الغيب للرازي جـ ٨ ص ٣٨٢

وهذا التوجيه – على قول مَنْ قال به – غير متوافق مع سياق الآيات التي تحكي عنهم مواقفهم يوم القيامة، ذلك أنّ الله – ﷻ– بيَّن أنهم لم يكونوا مخلصين في ندمهم الذي أظهروه يوم القيامة فقال " وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ "[1].

فمن هذا يكون كلام أبي حيَّان – رحمه الله – في ردِّه لهذا التوجيه صحيحاً لعدم ملائمة معنى الإخلاص لسياق الآية الكريمة وما جاء من آيات أخرى تبين حال الكافرين يوم القيامة، والله أعلم .

(١) الأنعام: ٢٧ ، ٢٨

المطلب الخامس

استدلال أبي حيَّان - رحمه الله - بالسياق على تعيين أصحاب الضمائر

يقول أبو حيَّان – رحمه الله – في تفسير قول الله –ﷻ – ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

"والظاهر أن الضميرين في: بِهِ ، و مَوْتِهِ ، عائدان على عيسى وهو سياق الكلام، والمعنى: من أهل الكتاب الذين يكونون في زمان نزوله .

روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام قاله: ابن عباس، والحسن، وأبو مالك .

وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة، والضحاك، والحسن، أيضاً ومجاهد، وغيرهم: الضمير في " بِهِ "لعيسى، وفي " مَوْتِهِ "لكتابي، وقالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ويعلم أنه نبي، ولكن عند المعاينة للموت فهو إيمان لا ينفعه كما لم ينفع فرعونَ إيمانُه وقت المعاينة) (٢) انتهى .

الدراسة :

ذكر أبو حيَّان – رحمه الله – في هذه الآية الكريمة قولين في صاحب الضمير في قول الله –ﷻ – " بِهِ " و" مَوْتِهِ "، فذكر القول الأول وهو عودتهما لعيسى – عليه السلام – وأن ذلك يكون آخر الزمان عندما ينزل قبل قيام الساعة، وانتصر لهذا القول بناءً على موافقته لسياق الكلام، ثم ذكر القول الثاني: وهو عودة الضمير في " بِهِ "إلى عيسى – عليه السلام – وفي " مَوْتِهِ "إلى أهل الكتاب أي أن الكتابي يؤمن بنبي الله عيسى – عليه السلام – قبل أن يموت هذا الكتابي، كما ذكر أقوالاً أخرى في الآية لم يُطلِ الكلام عنها، منها أن

---

(١) النساء: ١٥٩

(٢) البحر المحيط جـ ٣ ص ٤٠٨

الضمير في " بِهِ "يعود على النبي – ﷺ– وفي " مَوْتِهِ "للكتابي، أو أنَّ الضمير في " بِهِ "لله – ﷻ– وفي " مَوْتِهِ "على " أحد "المقدَّر .

أما بالنسبة للقول الذي رجحه وهو عودة الضمير في " بِهِ " و" مَوْتِهِ "على عيسى – عليه السلام – وأن ذلك يكون آخر الزمان عندما ينزل قبل قيام الساعة، فهذا القول الأقرب لسياق الآية كما ذكر رحمه الله، ذلك أن الآية الكريمة تتحدث عن عيسى – عليه السلام – وذِكْرُ الموت بالنسبة له يكون موافقاً لحديث نزوله آخر الزمان .

فقد روى البخاري في صحيحه – بسنده – عن سعيد بن المسيب عن أبي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ– "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عدْلاً فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا "ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ " وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا "[1]

وقد رجَّح هذا القولَ الإمامُ الطبريُ – رحمه الله – فقال – بعد أن ذكر هذه الأقوال – (وأولى الأقوال بالصحة والصواب، قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى .

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال لأن الله – جل ثناؤه – حكم لكل مؤمنٍ بمحمدٍ – ﷺ– بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابيّ يؤمن بعيسى قبل موته لوجب أن لا يرث الكتابيّ إذا مات على مِلّته إلا أولاده الصغار، أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغٌ مسلم، كان ميراثه

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء: باب: بَاب نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السلام ص ٥٦٥حديث رقم ٣٤٤٨

مصروفًا حيث يصرف مال المسلم يموت ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغَسْله وتقبيره .

لأن من مات مؤمنًا بعيسى فقد مات مؤمنًا بمحمد وبجميع الرسل، وذلك أن عيسى – صلوات الله عليه – جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين – صلوات الله عليهم – فالمصدّق بعيسى والمؤمن به، مصدق بمحمد وبجميع أنبياء الله ورسله، كما أن المؤمن بمحمد مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله، فغير جائز أن يكون مؤمنًا بعيسى من كان بمحمد مكذِّبًا)[1] .

يقول ابن كثير – رحمه الله – موافقاً ومعقباً على ترجيح الطبري – رحمه الله – (ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير – رحمه الله – هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٍ وإنه سينزل قبل يوم القيامة)[2].

يقول ابن حجر – رحمه الله – (وَإِنْ) بمعنى ما، أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به، وهذا مصير من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله (إلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) وكذلك في قوله: (قَبْلَ مَوْتِهِ) عودٌ على عيسى، أي إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم ابن عباس فيما رواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح، ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال: قبل موت عيسى)[3]

---

(١) جامع البيان للطبري جـ ٤ ص ٢٩

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٧

(٣) ينظر: فتح الباري جـ ٦ ص ٥٦٨

المطلب السادس

الاستدلال بالسياق على المحذوف

يقول الله – ﷻ – ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١).

يقول أبو حيَّان – رحمه الله – " فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ " هذا تصريح بمفهوم الغاية، وفيه محذوف، أي: فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم فيه، ودلَّ على إرادته سياقُ الكلام، ولم يُخْتلف في قوله: فاقتلوهم، أنه أمر بقتلهم على ذلك التقدير، وفيه بشارة عظيمة بالغلبة عليهم، أي: هم من الخذلان وعدم النصرة بحيث أُمرتم بقتلهم لا بقتالهم، فأنتم متمكنون منهم بحيث لا يحتاجون إلاّ إلى إيقاع القتل بهم، إذا ناشبوكم القتال، لا إلى قتالهم . (٢)

الدراسة:

لما كان من مقتضيات الإعجاز أن تأتي المعجزة من جنس ما اشتهر به القوم جاء القرآن بنفس لغة العرب، ومن تمام إعجازه أنه جاء بنفس أسلوبهم في كلامهم حتى لا يتحججوا بمجيئه على أسلوب لم يعهدوه، وهو مع ذلك كله يرتقي على كل ما اعتبروه غاية في الفصاحة والبلاغة .

ومن ضمن أساليب العرب المعروفة في كلامهم أسلوب الحذف الذي يجعل العقل في حالة يقظة وتنبه حتى ينظر في الكلام فيعرف ما فيه من حذف، وهو لا يتأتى إلا لذوي النباهة والعقل .

---

(١) البقرة: ١٩١

(٢) البحر المحيط جـ ١ ص ٧٥

يقول عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – "هو بابٌ دقيقُ المسلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنك ترى به تركَ الذكر أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة، أزيدَ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ "(١)

والحذف مع ذلك لا يخلو من دليل عليه يراه المتدبر الفاهم، لذا نجد أبا حيَّان – رحمه الله – يستدل عليه بسياق الآية الكريمة .

يقول العز بن عبد السلام – رحمه الله – "والاختصار هو الاقتصار على ما يدل على الغرض مع حذف أو إضمار، والعرب لا يحذفون ما لا دلالة عليه ولا وصلة إليه، لأن حذف ما لا دلالة عليه منافٍ لغرض وضع الكلام من الإفادة والإفهام، وفائدة الحذف تقليل الكلام وتقريب معانيه إلى الأفهام .(٢)

وفي هذا الموضع نجد أبا حيَّان – رحمه الله – يستدل على الحذف بسياق الكلام الذي يشير إلى محذوف مقدَّر ، وهذا الحذف لا بد من تقديره مراعاة للسياق، فالكلام على تقدير المحذوف يكون مفيداً للأمر بقتلهم في حالة معينة وهي قتلهم في الحرم إن بدأوا بالقتال والعدوان .

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله – "وجُعِلتْ غايةُ النهي بقوله " حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ " أي: فإن قاتلوكم عند المسجد فاقتلوهم عند المسجد

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ص ١٤٦ ط مكتبة الخانجي بالقاهرة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر

(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد السلام ص ٢ ط المطبعة العامرة ١٣١٣ هـ ، والمطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني ص ٣٠٦ تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ط دار الكتب العلمية – بيروت طبعة ثالثة ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م

الحرام، لأنهم خرقوا حرمة المسجد الحرام، فلو تُركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين، فإن قاتلوا المسلمين عند المسجد الحرام عاد أمر المسلمين بمقاتلتهم إلى ما كان قبل هذا النهي فوجب على المسلمين قتالهم عند المسجد الحرام وقتل مَنْ ثَقَفوا منهم كذلك .

وفي قوله تعالى " فَاقْتُلُوهُمْ " تنبيهٌ على الإذن بقتلهم حينئذ ولو في غير اشتباك معهم بقتال، لأنهم لا يُؤمَنون من أن يتخذوا حرمة المسجد الحرام وسيلة لهزم المسلمين.

ولأجل ذلك جاء التعبير بقوله " فَاقْتُلُوهُمْ "لأنه يشمل القتل بدون قتال، والقتل بقتال فقوله تعالى " فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ "أي عند المسجد الحرام فاقتلوهم هنالك، أي فاقتلوا من ثقفتم منهم حين المحاربة، ولا يصدكم المسجد الحرام عن تقصي آثارهم لئلا يتخذوا المسجد الحرام ملجأ يلجؤون إليه إذا انهزموا "[1].

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ ٢ ص ٢٠٣ ط الدار التونسية للطبع والنشر ١٩٨٤ م

المطلب السابع

الاستدلال بالسياق على تعيين المقصود بالخطاب

يقول الله – ﷻ– ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (١)

يقول أبو حيَّان – رحمه الله – " مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ " الخطاب قيل: للمؤمنين . وقيل: للكافرين، وهو الذي يقتضيه سياق الكلام.

وهذا استفهام معناه النفي أي: ما يعذبكم إنْ شكرتم وآمنتم، والمعنى: أنه لا منفعة له في ذلك ولا حاجة، لأن العذاب إنما يكون لشيء يعود نفعه أو يندفع ضره عن المعذِّب، والله تعالى منزه عن ذلك، وإنما عقابه المسيء لأمر قضت به حكمته تعالى، فمن شكره وآمن به لا يعذبه .(٢)

الدراسة:

جاء في الآيات التي سبقت هذه الآية الكريمة قولُ الله –ﷻ – ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞ إلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٣)

فمجيء الخطاب في هذه الآية الكريمة للمنافقين أقرب لسياق الآيات الكريمة كما ذكر أبو حيَّان رحمه الله، وهو وإن ذكر أنها في الكافرين فلا يمنع أن يشمل هذا

(١) النساء ١٤٧

(٢) البحر المحيط جـ ٣ ص ٣٩٧

(٣) النساء ١٤٥ – ١٤٦

المنافقين معهم، فحقيقتهم واحدة وإن اختلفوا في المظهر وما يترتب عليه من أحكام ظاهرة، فالتوبة عن الكفر والنفاق واحدة وهي الإيمان بالله ﷻ .

وقد حمل الإمام الطبري – رحمه الله – الخطاب هنا على المنافقين ولم يذكر في ذلك قولاً آخر فقال (يعني جل ثناؤه بقوله: " مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ " ما يصنع الله أيها المنافقون بعذابكم إن أنتم تُبتم إلى الله ورجعتم إلى الحق الواجب لله عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالَكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد – ﷺ– فصدَّقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟)[1].

(١) جامع البيان للطبري جـ ٤ ص ٤٥٦

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتمُّ الصالحات وتُقْبَلُ الطاعات وتُغْفرُ السيئات وأصلي وأسلم على خير الخلق ونبي الحق سيدنا محمدٍ – ﷺ– وعلى آلـه وأصـحابه ومـن اهتـدى بهديهم وسار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

وبعد ،،،

فإنني أرجو من الله – ﷻ– أن أكون قد وُفِقتُ في هذا العـرض المـوجز لبيـان أهمية مراعاة السياق في تفسير كتاب الله – ﷻ – وبيان موقف الإمام أبـي حيَّـان – رحمه الله – منه في تفسيره .

وإنني أرجو من كل مُطَّلِعٍ على هذا البحث أن يلتمس لي العذرَ إن وجد في عملي هذا تقصيراً أو خطأً فإن الكمال لله – ﷻ– وحده .

فإن أكن قد وُفِقتُ في عملي هذا فبتوفيق من الله –ﷻ– ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللَّـهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (١).

وإن أكن قد أخطأتُ فإنني أستغفر الله العظيم – الذي لا يتعاظمه ذنب – مـن كـل خطأ أخطأته أو زلل زللتُه.

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِـذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَـا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

---

(١) هود:٨٨

(٢) البقرة: ٢٨٦

توصيات البحث

١- وجوب مراعاة شروط العلماء التي اشترطوها فيمن يتعرض لتفسير كتاب الله – ﷻ – حتى لا يقع الناس في سوء الفهم لكلام الله ﷻ .

٢- أهمية إبراز مواقف العلماء من شروط التفسير المقبول للقرآن الكريم وفي ذلك إرشاد إلى التطبيق العملي لهذه الشروط.

٣- دراسة مناهج العلماء في تفسيرهم بما يُظْهِر مدى ما وصل إليه علماؤنا السابقون من الفهم الصحيح لنصوص القرآن والسنة، وذلك أبلغ ردٍّ على من يتهمون تراث الأمة بالجمود والتحجر.

نتائج البحث

بعد هذا التطواف فيما يتعلق بموضوع السياق وبيان أهميته وتطبيق ذلك على تفسير البحر المحيط لأبي حيان – رحمه الله – وبيان منهجه وموقفه من رعاية السياق في تفسيره توصلت لما يلي :

١- أن رعاية السياق من أهم أدوات المفسر لفهم كلام الله – ﷻ – وتبين وجه الصواب فيه.

٢- تعدد أنواع السياقات التي أوجب العلماءُ إعمالها قبل الخوض في بيان معاني القرآن الكريم.

٣- أن أبا حيَّان – رحمه الله – كان من المفسرين الذين أوْلَوا قضية السياق اهتماماً كبيراً في تفسيره وكان السياق هو الفيصل في كثير من المسائل التي تعرض لها.

٤- بالنظر في موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من قضية السياق وتداخلها مع الأحاديث الصحيحة يظهر لي أنه قد يحمل الآية على سياق ألفاظها وما سبقها وما

تلاها على حساب إهمال الروايات الصحيحة التي تقيد معنى الآية وتدل على سياقها، كما جاء في بيان عضل المرأة .

٥- أنه في بعض المواضع يراعي ما جاء من روايات في سبب النزول ويحمل الآية عليها كما جاء في المطلب الأول عند تفسيره لقول الله -ﷻ- ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا .. [١] ويشدد على تغليب القول بالحقيقة على القول بالمجاز ، ثم نجده في مواضع أخرى يميل للأخذ بمعنى يخالف ما جاء في بيان سبب نزول الآية الكريمة كما في المطلب الثاني في تفسيره لقول الله - ﷻ - ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [٢] .

(١) البقرة: ١٨٩

(٢) البقرة ١٩٧

﴿ قائمة المصادر والمراجع ﴾

القرآن الكريم جلَّ من أنزله .

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي لجلال الدين السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر ابن محمد الخضيري ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٢- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد محمد بن علي بن وهب بن مُطيع القُشَيْري تحقيق محمد حامد الفقي – مراجعة أحمد محمد شاكر ط مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م .

٣- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي علي بن محمد – علق عليه الشيخ عبد الرازق عفيفي – ط دار الصميعي للنشر والتوزيع طبعة أولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م .

٤- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن مصطفى العمادي – تحقيق عبد القادر أحمد عطا ط مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.

٥- أساس البلاغة للزمخشري محمود بن عمر ط دار الفكر للطباعة والنشر طبعة ١٤١٥ هـ -١٩٩٤ م .

٦- أسباب النزول للواحدي أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري – تحقيق / أيمن صالح سفيان ط دار الحديث – القاهرة ط ثالثة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

٧- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام ط المطبعة العامرة ١٣١٣ هـ.

٨- الأشباه والنظائر للسبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي ط دار الكتب العلمية – بيروت طبعة أولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

٩- الأضداد في كلام العرب لأبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١ هـ تحقيق دكتورة / عزة حسن ط دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط ثانية ١٩٩٦ م.

١٠- الأضداد للأنباري محمد بن القاسم – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – ط المكتبة العصرية – بيروت ط ١٤٠٧ هـ ١٩٨٩م.

١١- البحر المحيط لأبي حيَّان محمد بن يوسف الأندلسي – دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ / على محمد معوض ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣ م .

١٢- بدائع الفوائد لابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب تحقيق علي بن محمد العمران ط دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

١٣- بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب للمارديني علي بن عثمان – تحقيق د / ضاحي عبد الباقي ط دار ابن قتيبة للطباعة والنشر – الكويت .

١٤- تحفة الأحوذي للحافظ المباركفوري محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم بشرح جامع الترمذي خرَّج أحاديثه / عصام الصبابطي ط دار الحديث – القاهرة ط أولى ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م .

١٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير إسماعيل بن عمر ط مكتبة الصفا طبعة أولى ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .

١٦- التفسير الوسيط للإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر – ط مطبعة السعادة ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

١٧- التفسير والمفسرون لذهبي محمد حسين ط مكتبة وهبة طبعة سادسة ١٤١٦هـ ١٩٩٥ م .

١٨- الجامع المسند الصحيح من حديث رسول الله – ﷺ – وسننه وأيامه للبخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ط دار الحضارة للنشر والتوزيع طبعة ثالثة ١٤٣٦هـ ٢٠١٥ م .

١٩- جامع بيان عن تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبري ضبط وتوثيق وتخريج / صدقي جميل العطار ط دار الفكر – بيروت ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .

٢٠- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي راجعه وضبطه وعلَّق عليه د/ محمد إبراهيم الحفناوي خرَّج أحاديثه د/ محمود حامد عثمان ط دار الحديث – القاهرة ط ثانية ١٤١٦ هـ ١٩٩٤ م .

٢١- جواهر البلاغة تأليف السيد أحمد الهاشمي – قرأه وقدم له الدكتور يحى مراد ط مؤسسة المختار ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م .

٢٢- دلائل الإعجاز للجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد – قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ط مكتبة الخانجي بالقاهرة

٢٣- السياق القرآني وأثره في التفسير للمطيري عبد الرحمن بن عبد الله سرور جرمان – رسالة ماجستير – المملكة العربية السعودية – جامعة أم القرى ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٤- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري بشرح يحي بن شرف النووي حققه وفهرسه/ عصام الصبابطي وآخرون – ط دار الحديث – القاهرة ط أولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م .

٢٥- طبقات المفسرين للحافظ الداوودي شمس الدين محمد بن علي ٩٤٥ هـ ط دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٦- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع تأليف بسيوني عبد الفتاح فيود مؤسسة المختار للنشر والتوزيع دار المعالم الثقافية الطبعة الثانية1998 م.

٢٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني الحافظ أحمد بن علي بن حجر حققه / محب الدين الخطيب رقَّمَ كتبه وأبوابه وأحاديثه / محمد فؤاد عبد الباقي ط المكتبة السلفية ط ثالثة ١٤٠٧ هـ .

٢٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد ط دار الكتب العلمية –بيروت ط أولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

٢٩- لسان العرب لبن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد الإفريقي ط دار الفكر – بيروت ط ثالثة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م .

٣٠- مجاز القرآن لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنى التَيْمي، عارضه بأصوله وعلَّق عليه د / محمد فؤاد سركين ط مكتبة الخانجي – القاهرة .

٣١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية أبي محمد عبد الحق الأندلسي ط دار الخير – بيروت طبعة ثانية ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧م.

٣٢- المستدرك للحاكم محمد بن عبد الله ، وبهامشه التلخيص للحافظ الذهبي محمد ابن أحمد ط دار الكتب العلمية – بيروت ط ثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م .

٣٣- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للتفتازاني سعد الدين مسعود بن عمر تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ط دار الكتب العلمية – بيروت طبعة ثالثة ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م.

٣٤- مفاتيح الغيب للرازي فخر الدين محمد بن عمر ط دار الفكر – بيروت .

٣٥- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ط تحقيق دكتور عدنان زرزور طبعة ثانية ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

٣٦- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ الزرقاني محمد عبد العظيم ط دار الفكر – بيروت طبعة أولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

٣٧- الموافقات للشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي شرح وتخريج أحاديث الشيخ / عبد الله دراز، وضع تراجمه محمد عبد الله دراز، فهرسة موضوعات/ عبد السلام عبد الشافي ط دار الكتب العلمية بيروت – طبعة أولى١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

٣٨- الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله ابن سلامة ط مكتبة المتنبي.

٣٩- نظم الدرر للبقاعي أبي الحسن إبراهيم بن عمر ط دار الكتاب الإسلامي – القاهرة.

٤٠- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مجد الدين أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري ٦٠٦ ه تحقيق / محمود محمد الطناجي – طاهر أحمد الزاوي ط المكتبة الإسلامية طبعة أولى ١٣٨٣ ه – ١٩٦٣ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٧
تمهيد .	١٣
المبحث الأول: تعريف السياق وبيان أهمية مراعاة السياق القرآني وبيان أنواعه .	١٦
المبحث الثاني : ذكرت فيه نماذج توضح موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من مراعاة السياق في تفسيره المسمى بـ "البحر المحيط "ويشتمل على سبعة مطالب :	٣٢
المطلب الأول: موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من تغليب الحقيقة على المجاز .	٣٢
المطلب الثاني: موقف أبي حيَّان – رحمه الله – من رعاية سياق سبب النزول.	٣٥
المطلب الثالث: سياق النزول والاستدلال الفقهي	٤٢
المطلب الرابع: استدلاله بالسياق على ردِّ الأقوال.	٤٧
المطلب الخامس : استدلال أبي حيَّان – رحمه الله – بالسياق على تعيين أصحاب الضمائر .	٥١
المطلب السادس: الاستدلال بالسياق على المحذوف.	٥٤

الموضوع	الصفحة
المطلب السابع . الاستدلال بالسياق على تعيين المقصود بالخطاب	٥٧
الخاتمة.	٥٩
قائمة المصادر والمراجع	٦٢
فهرس الموضوعات	٦٧